# مشاهير المتقدمين والمتاخرين

## شرقي في بلاط روسيا

### ﴿المرحوم سليم دي نوفل﴾

بقلم شرقي فاضل يقضي حق شرقي عاقل

توفي في بطرسبرج في هذا الشهر العالم الشرقي المشهور الاستاذ سليم دي نوفل الطرابلسي فرايت ان ابعث الى الجامعة بترجمة حياته اظهاراً لفضل رجال الشرق وشحذاً لهمم ابنائه ليتشبهوا بفضلائهم

﴿ترجمته﴾ هو سليم بن عبدالله بك بن جرجس نوفل الطرابلسي اصلاً ومولداً. وكانت ولادته في سنة ١٨٢٨ مسيحية في طرابلس الشام وربي فيها تربية كريمة لان عائلته المشهورة في الفيحاء كان معظم رجالها من موظفي الحكومة العثمانية. وقد استدل الجميع منذ صغره على حسن مستقبله بما كان يلوح على وجهه من لوائح النباهة والذكاء ولكنه لم يدر في خلد احد منهم انه سيكون يوماً من الايام من الرجال الذين يفتخر بهم الشرق ويدل الغرب على استعداد الشرقي لكل تقدم وارتقاء. ولما كانت مدارس طرابلس مقصورة على تدريس المبادىء العربية ذهب الفقيد الى بيروت لداعٍ عائلي وتلقى في احدى مدارسها من اللغة الفرنسوية ما يمكنه من الفهم والتفهيم بها. ثم عاد الى وطنه طرابلس واكبَّ على الدرس والمطالعة بغير استاذ. وفي سنة ١٨٥٨ عُهدت اليه وكالة البواخر الروسية ولكنه لم يقم فيها سنة واحدة حتى طلبته حكومة روسيا الى بطرسبرج بواسطة البطريرك الانطاكي والبطريرك الاورشليمي للروم الارثوذكس وذلك ليكون استاذاً للغة العربية في كلية بطرسبرج. فسار الفقيد الى بطرسبرج على نفقة حكومة روسيا ولم تكن السكة الحديدية الروسية قد اتصلت يومئذٍ بتلك العاصمة فاضطر الى ان يبتاع مركبة بخيلها لتنقله اليها هو وعائلته. وكان ذلك في فصل الشتاء القارص وما ادراك ما هو الشتاء في روسيا. والذي زاد مشقة السفر

جهله اللغة الروسية ومحاولة الفلاحين الروس تعطيل مركبته ليضطروه الى ان يشتري منهم غيرها

ولما استقر في بطرسبرج دخل في الجنسية الروسية وانصب على درس اللغة الروسية والتاليف والخطابة باللغة الفرنسوية والتدريس باللغة العربية . ولما اطلع القيصر اسكندر الثاني على بعض خطبه ومقالاته اعجبته رشاقة اسلوبها . واتفق ان الشيخ شامل الشركسي المشهور الذي حارب روسيا مدة ٣٢ سنة خضع وسلم لها في ذلك الزمن وكان لا يُحسن اللغة الروسية بل العربية فجُعل الفقيد ترجمانًا بينه وبين القيصر . ومنذ هذا الحين بدأ تقدمه الحقيقي . فان القيصر احبه لذكائه ونشاطه ودقة نظره فقربه منه ووهبه دارًا ومنحه لقب شرف وهو (دي) فصار يُسمى « ايڤرنيه دي نوفل »

وفي سنة ١٨٧٦ عهد اليه القيصر رئاسة قلم في وزارة الداخلية وفي سنة ١٨٧٧ مُنح رتبة مستشار للبلاط الامبراطوري وفي سنة ١٨٧٩ مُنح رتبة مستشار للدولة . وارسلته الحكومة الروسية في ماموريات سرية الى بعض البلاد الاوربية منها سفارة الى رومه لمخابرة الحضرة البابوية في مسالة متعلقة باهالي فنلنده الكاثوليك التابعين لروسيا . وانتدبته عدة مرات للنيابة عن الروس في المؤتمرات الشرقية . وكان الفقيد يقوم بواجباته خير قيام فمنحته حكومته عدة وسامات منها وسام القديسة حنه من الدرجة الاولى . وقد جاء في براءة هذا الوسام ان القيصر منحه اياه «مكافأة له على خدماته السارة وتآليفه الممتازة» ومنها « الوسام الرومي » . وقد منحته فرنسا رتبة غران كوردون من جوقة الشرف

﴿ انجاله ﴾ تزوج الفقيد قبل سفره من طرابلس وكان له يوم سفره الى بطرسبرج غلامان وابنة . ورزق في بطرسبرج غلامين وابنة ايضاً . وقد ربى اولاده احسن تربية . منهم اليوم واحد نائب حاكم القوقاز والآخر قنصل لروسيا في بغداد والثالث محامٍ مشهور في بطرسبرج والرابع موظف في الحكومة الروسية . وقد توفيت احدى بنتيه وكانت على جانب عظيم من الذكاء وكانت موظفة في بلاط الامبراطورة . فحزن عليها الفقيد حزنًا عظيماً . وكتب بعيد وفاتها كتاباً لبعض اخصائه ولما ذكر فيه الفقيدة اشار الى حزن اهل بطرسبرج والبلاط عليها فقال « ان الكهنة انفسهم كانوا يبكون في المدفن حزنًا عليها . وهل رأى احد كهنة يبكون على ميت » وقد امرت الامبراطورة بدفن فقيدته العزيزة في مدفن اسكندر فنسكي مدفن الاشراف اكرامًا لها ولابيها

﴿ معارفه ومؤلفاته ﴾ كان الفقيد يعرف اللغة الفرنسوية والعربية لغته الاصلية والروسية والانكليزية والتركية وغيرها . وقد تلقى اللغة الحبشية ايضاً . وطريقة درسه هذه اللغة لا تخلو من فكاهة . ذلك انه ورد في ذات يوم على القيصر كتاب سري من النجاشي باللغة الحبشية فعهد القيصر الى الفقيد بان يترجمه له فاخذه الفقيد ثم التمس انجيلاً باللغة الحبشية واخذ على ما يقال يتصفحه و يقابل كلماته بكلمات الكتاب واقام على ذلك حتى فهم معنى الكتاب . ولعله استعان على ذلك بعارف باللغة الحبشية وانما كان يعرض عليه كلمات الانجيل بلا اتساق و يطلب منه تفسيرها دون ان يوقفه على الكلمات الشبيهة بها في الكتاب

اما مؤلفاته فهي كلها باللغة الفرنسوية . وكان في هذه اللغة كاتباً نحريرًا . وكفى دليلاً على ذلك ان الخطبة التي القاها في مؤتمر المستشرقين الذي انعقد في باريز منذ بضع سنوات كتبها في اقل من ساعة قبل انعقاد الجلسة . ولكن الذي سهل له هذا الامر الصعب ان ذهنه كان مفعماً بموضوعها . وكان موضوعها « مطابقة الدين الاسلامي الحقيقي للمدنية » .

ذلك ان جميع مؤلفات الفقيد كانت في المواضيع الشرقية الاسلامية . منها كتاب في ترجمة صاحب الشريعة الاسلامية ( صلعم ) وقد حذا فيه الفقيد حذو الفيلسوف رنان في ترجمة السيد المسيح الذي نشرته الجامعة في هذا العام . ومنها كتاب عنوانه « الزواج في الاسلام » وآخر عنوانه « الملكية في الاسلام » وآخر عنوانه « النسل والطلاق »

ولما انتشر احد هذه الكتب رأى جلالة السلطان ان بعض قرائه قد يؤولونه تأويلاً لا يوافق المصلحة العامة فبعث الى بطرسبرج وطلب من القيصر ان يسأل المؤلف اذا كان يرضى بمنع نشر كتابه . فاستدعاه القيصر وقال له انا لا آمرك بذلك امرًا اذ ليس ذلك من سلطتي ولكني اسألك اذا كنت ترضى بهذا المنع . فرضي بذلك رحمه الله بطيبة خاطر اجابة لطلب جلالة السلطان الذي عاش الفقيد تحت اكنافه ورعايته نحو نصف حياته وكان في اثنائها من رعيته وابنائه

وامامنا الآن ونحن نكتب هذه السطور تقريظ من « جريدة بطرسبرج » لكتابه « النسل والطلاق » مؤرخاً في ٢٢ ابريل سنة ١٨٩٣ . وقد جاء في هذا التقريظ ثناء كثير على المؤلف . ومما قاله كاتب التقريظ ان قراء المسيو دي نوفل لا يقرأون في كتبه فقط كتابات مستشرق من الدرجة الاولى وعالم متضلع باللاهوت والفلسفة ولكنهم يقرأون

ايضاً « كتابات رجل يجري في عروقه دم شبيه بدم العرب ونبيهم العظيم ( صلعم ) ثم قال ان المسيو دي نوفل قد اوضح مشكلات الفقه الاسلامي للاوربيين وهو يثني في كتاباته على العرب وعلى روحهم العظيمة ولكنه يذكر السيئات مع الحسنات . وكلما تكلم عن النبي ( صلعم ) تكلم عنه باحترام ولقبه « النبي العظيم » : ثم انتقل الكاتب الى آراء المؤلف فقال عنها انها في منتهى الجرأة والغرابة . وقد امتاز بكونه يتكلم عن ادق المسائل واحرقها بنحافة توقفك على حقيقتها وانت تحسب انك لا تبحث فيها . و بذلك استطاع الخوض في مسائل فلسفية خطيرة لم يستطيعوا في اللغة اللاتينية الا الاشارة اليها

﴿اخلاقه وآراؤه﴾ كان رحمه الله ربعة الجسم كساه المشيب وقاراً وكان في لوائح وجهه انفة العالم واتضاع الفيلسوف . ومما يروى عن فرط اتضاعه وكراهته للفخفخة الباطلة انه لما كان في باريز ايام اجتماع مؤتمر المستشرقين فيها اراد الذهاب مع اعضاء المؤتمر لزيارة رئيس الجمهورية بصفته نائباً عن روسيا فيه ولكنه لم يلبس لباسه الرسمي ولم يضع عليه وسام جوق الشرف من درجة غران كوردون . فالح عليه صديقه ورفيقه في المؤتمر حضرة الامير امين ارسلان في وضع ذلك الوسام لان رئيس الجمهورية يبالغ في اكرامه متى راه حائزاً عليه . فرضي الفقيد اخيراً بذلك اكراماً لنائب روسيا ان لم يكن اكراماً لنفسه . ولكنه لما كان على الطريق في مركبة مع حضرة الامير امين غطى الوسام بملابسه لكي لا يظهر الا في حين الحاجة اليه

اما آراؤه في الشرق والعرب والفلسفة فيقتضي بسطها مقالاً على حدة . وربما لخصت شيئاً منها و بعثت به الى الجامعة . انما اكتفي هنا بذكر رأي له في ارتقاء الاداب الكتابية في اللغة العربية . فان الفقيد يرى ان السجع والشعر على الطريقة القديمة من اشد العوامل الحائلة دون ارتقاء الكتابة في هذه اللغة لان الكاتب العربي لا يكون ذهنه منصرفاً الا الى الالفاظ وسجعها بدلاً من انصرافه الى درر المعاني واعتبار الالفاظ لباساً لها. اي ان اهتمامه يكون بالقشر لا باللباب . وهذا من اعظم مصائب بعض الكتاب . على اننا نظن ان الفقيد راى هذا الراي قبل هذا العصر بعشر سنين او عشرين سنة لان اسلوب الكتابة العربية قد تغير الآن تغيراً عظيماً . وذلك الاسلوب القديم لم يبقَ منه الا الاثر وهو آخذ في الزوال شيئاً فشيئاً فلا يبقى الا الاسلوب الطبيعي الذي مقتضاه كتابة الكاتب كما يتكلم لان المقصود ابلاغ المعاني لا صف الالفاظ

﴿ مقامه في روسيا ﴾ وقد ذكرنا فيما تقدم منزلة الفقيد في البلاط الروسي ونزيد على ذلك الآن انه كان الصلة بين روسيا وجميع العناصر الشرقية . فان امراء الشرق المسلمين الذين يفدون على بطرسبرج كانوا يتعرفون به . وكان مقصداً لكل شرقي مسلم او مسيحي يفد الى بطرسبرج لحاجة سواء كان من القوقاز و بخارى وغيرها من البلاد الروسية التي يتكلم اهلها اللغة العربية او من الولايات العثمانية . وكان له مراسلات مع المرحوم جمال الدين الافغاني . واكثر بطاركة الشرق الذين كانوا يحتاجون شيئاً في روسيا كانت علائقهم معها على يده.

هذه هي الجوهرة الثمينة التي فقدتها روسيا . واذا كانت هذه الدولة تتعزى عن فقده بمن لديها من رجالها العظام في كل علم وفن فان الشرق لا يتعزى عن وفاة فرد من افراده لقلتهم في ربوعه . ابدل الله هذه القلة كثرة ونفع الشرق بقوى ابنائه ومواهبهم بدلاً من تركهم ينفقونها خارجاً عنه .